المقدمة

إن الطب النفسى عندى هواية قبل أن يكون مهنة . . فناً . . كالرسم والموسيقى والقصص . . الإنسان عادة من هواة الأنين . . إننا نهوى الأغانى التى فيها الأنين ، ونهوى قراءة القصص الحزينة لأنها تملأ صدورنا بالأنين وتشد الدموع من عيوننا . .

إن الإنسان إن لم يحزن على نفسه بحث عن شخص آخر يحزن عليه ، أو يتمثل نفسه بطل إحدى القصص المثيرة . وتحمل ما يعانيه البطل من عذاب ، وألم وحزن . . وأنا أهوى أنين مرضاى ، وليس معنى ذلك أنى أتلذذ بعذابهم . . أبدًا ولكنى أعيش فى عذابهم وأحاول مساعدتهم ، وأسعد براحتهم . . .

مرضاى لهم قصص عجيبة . . قصص الإنسانية عندما تتعرى من ثيابها ، وترفع عن وجهها القناع . . القناع الذى يفرضه علينا المجتمع . . ثم تبدو النفس البشرية كما هى . . غابة كثيفة موحشة تنمو فيها أشجار مفزعة . . شجرة الخوف ، شجرة الأنانية ، شجرة الحقد وشجرة الغيرة . . و . . و . . وتحت أقدام الأشجار زهور رقيقة تحاول عبثاً أن تصل إلى نور الشمس . . زهرة الحب . . زهرة المعرفة . . زهرة الأمومة . . وزهرة التعاون الاجتماعى . . و . .

وعملى هو أن أجوس خلال الغابة . وفى يدى مصباح خافت الضوء .

لأكتشف أشجارها المفزعة ، وهضابها وبراكينها . . وأحرص على ألا أطأ بقدمي إحدى هذه الزهور الرقيقة بل أحنو عليها وأتعهدها حتى تشب وتصل إلى نور الشمس . . وتسعد بالحياة . . هذه هي مهنة الطب النفسي . .

فالطب النفسي من بعض جوانبه على الأقل ، هو مهنة الحياة مع النـاس في متاعبهم ومعاناتهم ومحنهم . وليس أمام الطب النفسي في ذلك خيار ، ولا له عنه بديل . والأداة الرئيسية في عمل الطبيب النفسي بالإضافة إلى أمانته وعلمه ، أن يصغي فيحسن الإصغاء ، لأنه بالإصغاء يعطي مريضه فرصة للتنفيس عما بصدره ، والشعور بأن هناك إنساناً قـادراً يهتم بأمره . . وهذا في ذاته باعث على اطمئنانه . والاطمئنان خطوة أولى وحتمية لرؤية المشاكل في أبعادها الحقيقية . ثم لأنه بالإصغاء يعطي نفسه فرصة إلمام أشمل بالظروف التي اكتنفت حياة المريض وأسهمت في انبثاق مشكلته ، وتصورها ، حتى صيغت في الصورة التي دفعت به إلى الطبيب يسأل عونه ويطلب مساعدته .

فالطبيب النفسي يستطيع كذلك بالإصغاء أن يدرك ما يجري في العقل الباطن وأن يتحكم فيه ، لأن ذلك هو الطريق الأول إلى أعلى مراتب السعادة فمن العقل الباطن ينبع الخيال وتنفجر قوى الإبداع والابتكار . . في حين أن الجهل بالعقل الباطن يؤدي إلى شروره ، وهذا كفيل بالقضاء على صاحبه ، إما ببطء عن طريق إصابته بالمرض العقلي أو الانحرافات الخلقية على أنواعها ، وإما أن يأتي الدمار سريعاً في صورة جرائم وحشية وأعمال من العنف المخيف .

فعن طريق اكتشاف محتويات العقل الباطن يمكن فتح أبواب الأمل أمام كثيرين ممن يترددون فى مهاوى اليأس والقنوط ، وذلك عن طريق التفهم العميق فى محيط تربية النشء ، وتوضيح الأسباب الدافعة للانحراف ، وتهيئة العوامل على الحماية من الانحرافات الخلقية المتعددة . . فقد تبين من التحليل النفسى أن هناك قوى مجهولة توجهنا فى معظم الوقت . . ونحن بكشفنا الستار عن عناصر هذه القوى ، نزيل الضغط عن النفس ونعيد المرء إلى طريق السلامة .

فى الجزء الأول من كتابى هذا أقدم عرضاً لبعض الحالات المرضية التى عرضت علىّ واكتشفتها وقمت بعلاجها بنجاح . كانت معظم أسباب الاعتلال بها هى نتيجة الأخطاء التربوية التى يرتكبها الأهل فى تنشئتهم لأبنائهم ، وحرمان طفولتهم من المناخ الصحى السليم . فتترسب آثارها فى قرارة عقلهم الباطن ، وتظل تكبر وتنمو بمضى الوقت إلى أن تنفجر بصورة مدمرة .

وقد حرصت على أن أقوم بالتحليل النفسى لكل حالة حتى يمكن معرفة الأسباب والدوافع الكامنة والمترسبة فى العقل الباطن والتى تؤدى فيما بعد إلى الانحراف ثم توضيح الأخطاء التربوية التى ارتكبها الأهل فى كل حالة ، حتى يستطيع الآباء والأمهات الاستفادة من قراءتها وتجنب الوقوع فى هذه الأخطاء . وبذلك نستطيع أن نقى الأبناء من الاضطراب النفسى أو الانحراف ونضمن لهم الحياة السعيدة الهانئة فى المناخ النفسى الصحى .

أما الجزء الثانى من الكتاب فقد اخترت بعض المواضيع الحية التى تمس حياة أبنائنا ، والتى يحتاج الآباء إلى معرفتها كى يستطيعوا أن يساعدوا

أبناءهم على أن يحيوا حياة هادئة متزنة أساسها التعاون والمحبة والإيثار وحب الغير ، بعيدة عن الحقد والكراهية والأنانية والغيرة . وبذلك نسعد بهم ويفخر الوطن بأعمالهم .

وأخيراً ، إذا استطاع هذا الكتاب بعد ذلك أن يلقى ولو قبساً خافتاً من الضوء على أصول التنشئة النفسية للطفل التى كثيراً ما يحلك فيها الظلام ، وأن ينبه أذهان الآباء والأمهات إلى ما فى ذلك من خير وسعادة لأبنائهم ، ومساعدتهم عن طريق عرض الحالات الواردة فى هذا الكتاب من رؤية أفضل لمشكلات أبنائهم النفسية وتناول سليم لها . وأن ينير السبيل أمام القائمين والمشرفين على تربية الطفل إلى طريق المعرفة الصحيحة للتنشئة النفسية للفرد فى المراحل المختلفة ، فإذا استطاع أن يفعل هذا أو شيئاً منه فذلك ما رجوت ، وما قصدت إليه .

د . كلير فهيم

إخصائية الطب النفسى

تحريراً فى ١٩٧٥